التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العددان ١٣٠ـ١٣١ ـ صيف/ خريف/ ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

المدير المسؤول

أ.د. حسين جمعة

رئيس التحرير

أ.د. راتب سكر

المراسلات باسم رئاسة التحرير

اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي،
دمشق ـ ص.ب (٣٢٣٠)
فاكس: ٦١١٧٢٤٤

البريد الإلكتروني: E-mail:aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت:
www.awu.sy

الاشتراك السنوي

- داخل القطر للأفراد : ٨٠٠ ل.س
- في الأقطار العربية للأفراد : ٢٥٠٠ ل.س أو (٥٠) دولاراً أميركياً
- خارج الوطن العربي للأفراد : ٣٠٠٠ ل.س أو (٦٠) دولاراً أميركياً
- الدوائر الرسمية داخل القطر : ١٠٠٠ ل.س
- الدوائر الرسمية في الوطن العربي : ٣٠٠٠ ل.س أو (٦٠) دولاراً أميركياً
- الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي : ٣٥٠٠ ل.س أو (٧٠) دولاراً أميركياً
- أعضاء اتحاد الكتاب : ٢٥٠ ل.س

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً يدفع نقداً إلى مجلة التراث العربي

مدير التحرير

أ. د. عبد الإله نبهان

هيئة التحرير

د. عبد الرحمن بيطار
أ.د. عبد الفتاح محمد
أ.د. عبد الله المجيدل
أ.م.د. عبد الكريم محمد حسين
أ.د. علي دياب
أ.د. محمود سالم
أ.د. وهب رومية

الإشراف والتدقيق اللغوي

أ.د. نبيل أبو عمشة

الإخراج الفني

وفاء الساطي

المعـــاني الدلاليّـــة لـ (إنّ) في التركيب النحـــويّ والبلاغـــيّ

❑ د. صبحي قصاب *

الأصل في دخول إنّ على الجملة الاسميّة إفادة توكيد نسبة المسند إلى المسند إليه، يقول سيبويه: فأمّا ما حُمل على الابتداء، فقولك: إنّ زيداً ظريفٌ وعمرو، وإنّ زيداً منطلقٌ وسعيد، فعمرو وسعيد يرتفعان على وجهين: فأحد الوجهين حسن، والآخر ضعيف.

فأمّا الوجه الحسن، فأن يكون محمولاً على الابتداء ؛ لأنّ معنى: إنّ زيداً منطلق: زيد منطلق، و (إنّ) دخلت توكيداً، كأنّه قال: زيدٌ منطلقٌ وعمرٌو[1].

ويقول الجرجانيّ: ثمّ إنّ الأصل الّذي ينبغي أن يكون عليه البناء هو الّذي دُوّن في الكتب من أنّها للتوكيد [2].

ولكنّ دخول إنّ على الجملة يفيد معانيَ دلاليّة غير معنى التوكيد، وهذه المعاني هي [3]:

❖ مدرّس في المعهد العالي للّغات في جامعة البعث.

[1] الكتاب ٢ / ١٤٤.

[2] دلائل الإعجاز ٢٥٠.

[3] سأذكر هذه المعاني بعناوينها كما ذكرها بعض العلماء والباحثين، ثمّ أعلّق بعد ذلك عليها، ناقداً إيّاها، ذاكراً رأيي فيها.

١ – إفادة الارتباط والائتلاف والاتحاد:

يقول الجرجانيّ في بيت بشّار:

بكّـــرا صـــاحبيّ قبـــلَ الهجـــير إنّ ذاك النجـــاحَ في التـــبكيرِ (١)

وذلك أنّه هل شيء أبين في الفائدة وأدلّ على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل ؛ من أنّك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتّحد به حتّى كأنّ الكلامين قد أُفرغا إفراغاً واحداً، وكأنّ أحدهما قد سُبك في الآخر.

هذه هي الصورة حتّى إذا جئت إلى (إنّ) فأسقطتها، رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأوّل، وتجافى معناه عن معناه، ورأيته لا يتّصل به، ولا يكون منه بسبيل حتّى تجيء بالفاء، فتقول: بكّرا صاحبيّ قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير... ثمّ لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة، وتردّ عليك الّذي كنت تجد بـ (إنّ) من المعنى.

وهذا الضرب كثير في التنزيل جدّاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الناسُ اتّقوا ربّكم إنّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم ﴾ (٢).

ويقول في موضع آخر: ألا ترى أنّ الغرض من قوله: (إنّ ذاك النجاح في التبكير)، جلّه أن يبيّن المعنى في قوله لصاحبيه: (بكّرا)، وأن يحتجّ لنفسه الأمر بالتبكير، ويبيّن وجه الفائدة فيه.

وكذلك الحكم في الآي الّتي تلوناها، فقوله: ﴿... إنّ زلزلة الساعةِ شيءٌ عظيم ﴾، بيان للمعنى في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الناسُ اتّقوا ربّكم...﴾، ولِمَ أُمروا بأن يتّقوا (٣).

وقال السكّاكيّ: ومن الشواهد لما نحن فيه، شهادة غير مردودة، رواية الأصمعيّ تقبيل خلف الأحمر بين عيني بشّار بمحضر أبي عمرو بن العلاء، حين استنشداه قصيدته هذه، على ما رُوي من أنّ خلفاً قال لبشّار بعدما أنشد القصيدة، لو قلت يا أبا معاذ مكان: إنّ ذاك النجاح: بكّرا فالنجاح في التبكير، كان أحسن، فقال بشّار: إنّما قلتها - يعني قصيدته – أعرابيّة وحشيّة، فقلت: إنّ ذاك النجاح في التبكير، كما يقول الأعراب البدويّون، ولو قلت: بكّرا فالنجاح في التبكير، كان هذا من كلام المولّدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة الّتي قلتها، فقام خلف، فقبّل بين عينيه (٤).

---

(١) ديوان بشّار ٣ / ١٨٤. والهَجِير: نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر، وقيل: إنّه شدّة الحرّ.

(٢) سورة الحجّ، الآية ١. انظر دلائل الإعجاز ٢٤٣.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٤٨، ٢٤٩.

(٤) مفتاح العلوم ٢٦١.

ويقول القزوينيّ: وكثيراً ما يخرج على خلافه فيُنزّل غير السائل منزلة السائل، إذا قَدِم إليه ما يلوح له بحكم الخبر، فيستشرف له استشراف المتردّد الطالب، كقوله تعالى: (... ولا تخاطبْني في الّذين ظلموا إنّهم مُغرَقون) (١)، وقوله: (وما أبرّئ نفسي إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء...)(٢)... وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقّة وغموض(٣).

ويقول د. الحمصيّ: ويكمن سرّ هذا الارتباط الّذي تفيده (إنّ) في دخولها على كلام يعلّل ما قبله، ويبيّن سببه أو يقوّيه ؛ على جهة الاحتجاج له وبيان فائدته (٤).

وأقول: إنّ أدقّ معنى لـ (إنّ) من خلال ما تقدّم أنّها للتعليل، بالإضافة إلى التوكيد، وهو المعنى الأصل لها، ففي قول بشّار:

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير إنّ ذاك النجاح في التبكير

يعلّل سبب التبكير بأنّه إصابة النجاح، مؤكّداً ذلك عبر هذه الأداة (إنّ).

وأمّا ما ذُكر حول قضيّة تقبيل خلف لبشّار ؛ فلا أعتقد أنّ هذه الرواية صحيحة للأسباب الآتية:

١ – إنّ قول بشّار: (إنّما قلتها أعرابيّة وحشيّة، فقلت: إنّ ذاك النجاح في التبكير، كما يقول الأعراب البدويّون)، يدلّ على أنّ خلفاً والأصمعيّ وأبا عمرو ليسوا بعارفي الأساليب الوحشيّة في التراكيب العربيّة، وقول الأعراب البدويّين. وهذا كلام لا يصحّ فيهم، وهم مَن هم !

٢ – إنّ قول بشّار: (ولو قلت: بكّرا فالنجاح في التبكير، كان هذا من كلام المولّدين)، قول لا يصحّ، ولا أعتقد أنّ بشّاراً يُخطئ في هذا، فاستخدام الفاء في هذا الموضع ومثله، ليس من كلام المولّدين، وإنّما هو أسلوب عربيّ صريح لا غبار عليه.

٣ – إنّ قوله: (ولا يشبه ذلك الكلام)، لا يستقيم، صحيح أنّه لا يطابقه تماماً، فتغيّر الحرف لا شكّ أنّه يغيّر شيئاً في التركيب. أمّا أنّه لا يشبهه ؛ فهذا أمر فيه نظر ؛ لأنّ الحرفين (إنّ، والفاء) هنا يؤدّيان معنى التعليل، ولكن لا شكّ أنّ وقوع (إنّ) هنا لها من السحر ما ليس لوقوع الفاء.

---

(١) سورة هود، من الآية ٣٧.

(٢) سورة يوسف، من الآية ٥٣.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ٣١.

(٤) مباحث في علم المعاني ١١٧.

٤ – إنّ قوله: (ولا يدخل في معنى القصيدة الّتي قلتها)، كلام غير صحيح البتّة ؛ فمعنى البيت لا يختلف فيما إذا قلنا: (إنّ ذاك النجاح في التبكير)، و إذا قلنا: (فذاك النجاح في التبكير)، فالحرفان أدّيا معنى التعليل، وهو سبب الدعوة إلى التبكير، وهو المعنى المراد.

أمّا أن نقول: إنّه أجمل بلاغيّاً ؛ فهذا أمر لا شكّ فيه. ولكنّ هذا لا يُخلّ في قضيّة معنى البيت.

وأمّا قوله تعالى: ﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيءٌ عظيم﴾(١): نلاحظ أنّ أمر الله للناس بالاتّقاء مقرون بالتعليل ؛ وهو أنّ يوم القيامة يوم عصيب.

وكذلك قوله تعالى: (... ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون) (٢)، علّل سبحانه وتعالى طلبه بعدم المخاطبة ؛ معلّلاً ذلك بأنّ قرار إغراق الظالمين متَّخَذ.

وأيضاً قوله تعالى: (وما أبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء...)(٣)، فيوسف عليه السلام لا يُبرّئ نفسه ؛ معلّلاً ذلك بأنّ النفس مجبولة على الأمر بالسوء.

ويؤكّد ذلك أيضاً قوله تعالى: (... وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكَنٌ لهم...) (٤)، فبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن يصلّيَ عليهم ؛ أتبع ذلك بتعليل يبيّن سبب هذه الصلاة.

ولا يخفى ما في الأمثلة السابقة كلّها من أنّ التأكيد - وهو المعنى الأصل لـ (إنّ) - مترافق مع التعليل، بأجمل أسلوب بلاغيّ.

٢ – تحسين وقوع ضمير الشأن بعدها:

يقول الجرجانيّ: ومن خصائصها أنّك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللطف ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلاّ بها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿...إنّه مَنْ يتّقِ ويصبرْ فإنّ الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾(٥)، وقوله: ﴿...أنّه مَنْ يُحادِدِ اللهَ ورسولَه فإنّ(٦) له نارَ جهنّم...﴾(٧)، وقوله: ﴿...إنّه(٨)

---

(١) سورة الحجّ، الآية ١. دلائل الإعجاز ٢٤٣.

(٢) سورة هود، من الآية ٣٧.

(٣) سورة يوسف، من الآية ٥٣.

(٤) سورة التوبة، من الآية ١٠٣.

(٥) سورة يوسف، من الآية ٩٠.

(٦) على قراءة من قرأ بالكسر.وقد قرأ بها ابن أبي عبلة. انظر القراءة في: التفسير الكبير ١٦ / ١٢٠، ومعجم القراءات القرآنيّة ٣ / ٤١٧.

(٧) سورة التوبة، من الآية ٦٣.

(٨) على قراءة من قرأ بالكسر.وقد قرأ بها الأعرج. انظر القراءة في: حاشية الشهاب على تفسير البيضاويّ ٤ / ٧١، ومعجم القراءات القرآنيّة ٢ / ٤٣٨.

من عمل منكم سوءاً بجهالة ثمّ تاب...﴾[١]، وقوله: ﴿...إنّه لا يفلح الكافرون﴾[٢]، ومن ذلك قوله: ﴿...فإنّها لا تعمى الأبصار...﴾[٣].

وما ذهب إليه الجرجانيّ من أنّ وصل ضمير الشأن مع (إنّ) يعطي الحسن واللطافة، يراه د. الحمصي لإرادة التوكيد، يقول: وتدلّ هذه الشواهد الّتي أوردها عبد القاهر على أنّ ضمير الشأن يُحتاج إليه مع (إنّ) حيث يُراد توكيد جملة التركيب الشرطيّ، كما في الآيات الثلاث الأولى، وحيث يُراد توكيد الجملة الفعليّة، كما في الآيتين الأخيرتين ؛ فضمير الشأن هو الّذي يوصل معنى التوكيد إلى جملة التركيب الشرطيّ، أو إلى الجملة الفعليّة ؛ ومن هنا يحسن أن يقع ضمير الشأن بعد (إنّ)، ولولا هذا الضمير لم يكن لـ (إنّ) سبيل لتوكيد الجملة بعده [٤].

وأقول: ما ذهب إليه د. الحمصيّ من إرادة التوكيد: إنّه حاصل من دون ضمير الشأن، لأنّ (إنّ) تحمل هذا المعنى بطبعها، ودليل ذلك أنّه لو قلنا في الأمثلة الشرطيّة الثلاثة: (إنّ من يتّق ويصبر...)، و (أنّ من يُحادد الله ورسوله...)، و (إنّ من عمل منكم...)، أي: من دون ضمير الشأن ؛ فإنّ معنى التوكيد واضح، ولا غبار على هذه الجمل من الناحية النحويّة.

فقول د. الحمصيّ: (ولولا هذا الضمير لم يكن لـ (إنّ) سبيل لتوكيد الجملة بعده)، لا يستقيم ؛ لأنّه حاصل من دونه، كما قلنا.

وما ذكرته يتعلّق بالجمل الشرطيّة، أمّا في الآيتين الأخيرتين، أي: دخول (إنّ) على الجملة الفعليّة ؛ فإنّه لا يصحّ إلاّ بدخول ضمير الشأن عليها ؛ فإنّنا لا نستطيع أن نقول: (إنّ لا يُفلح الكافرون)، ولا أن نقول: (فإنّ لا تعمى الأبصار).

فالأمر هنا لا يتعلّق بالتوكيد، وإنّما يتعلّق بحالة لفظيّة تركيبيّة، لا تستقيم الجملة إلاّ بها.

ولو كان د. الحمصيّ قد اقتصر على قوله في هذه المسألة: على أنّ لضمير الشأن وجهاً بلاغيّاً آخر، هو إفادة البيان بعد الإبهام، فالضمير يُشكل أمره على السامع حتّى إذا ذُكرت الجملة بعده حصل الإيضاح والتفسير [٥]، لكان أفضل وأدقّ.

---

[١] سورة الأنعام، من الآية ٥٤.
[٢] سورة المؤمنون، من الآية ١١٧.
[٣] سورة الحجّ، من الآية ٤٦. دلائل الإعجاز ٢٤٤.
[٤] مباحث في علم المعاني ١١٨.
[٥] مباحث في علم المعاني ١١٩.

ولا يخفى ما للحسن واللطافة في دخول ضمير الشأن على مثل هذه التراكيب، كما ذهب إليه الجرجانيّ، ولكن إن كان ذلك يصحّ على الجمل الشرطيّة ؛ فإنّه لا يصحّ على الجمل الفعليّة، كما رأينا ؛ لأنّ المسألة هنا تتعلّق بصحّة التركيب أو عدمه، ولا يتعلّق بالحسن واللطافة.

٣ – تهيئة النكرة لأن يكون لها حكم المبتدأ في الحديث عنها:

وممّا تصنعه (إنّ) في الكلام أنّك تراها تهيّئ النكرة وتُصلحها لأن يكون لها حكم المبتدأ، أعني: أن تكون محدَّثاً عنها بحديثٍ مِنْ بعدها، ومثال ذلك قوله:

إنّ شِـــــــــواءً ونَـــــــــشوةً وخبـــــــبَ البـــــــازلِ الأمُـــــــونِ(١)

قد ترى حسنها وصحّة المعنى معها، ثمّ إنّك إن جئت بها من غير (إنّ)، فقلت: (شواء ونشوة وخبب البازل الأمون)، لم يكن كلاماً.

فإن كانت النكرة موصوفة، وكانت لذلك تصلح أن يُبتدأ بها، فإنّك تراها مع (إنّ) أحسن، وترى المعنى حينئذٍ أولى بالصحّة وأمكن، أفلا ترى إلى قوله:

إنّ دهـــــراً يلـــــفّ شَـــــمْلي بـــــسُعدى لزمـــــــانٌ يهـــــــمُّ بالإحـــــــسان (٢)

ليس بخفيّ – وإن كان يستقيم أن تقول: دهر يلفّ شملي بسُعدى دهر صالح – أن ليس الحالان على سواء(٣).

قال د. الحمصيّ: ولعلّ حسن الابتداء بالنكرة مع (إنّ) ناشئ من اختصاص (إنّ) بالدخول على الجملة الاسميّة، فإذا نُطق بـ (إنّ) عُلم ابتداء أنّ ما بعدها جملة اسميّة، ولم يُلتفت بعدها إلى ما أصله المبتدأ، أ معرفة هو أم نكرة ؟ (٤).

---

(١) البازل: البعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفَطَر نابُه، وكذلك الأُنثى بغير هاء. الأمون: وثِيقةُ الخَلْقِ.
والبيت في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي٣ / ١١٣٧، وخبر إنّ قوله من القطعة نفسها:

من لذّة العيش والفتى للدهر والدهر ذو فنون

وهو لسلمى بن ربيعة، وذُكر: سَلْمُ، بدلاً من سلمى. انظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢ / ١٧٨، و ٣ / ١١٣٧، والتبريزيّ ٢ / ٥٥.

(٢) ويُروى: بجمْل، بدلاً من: سلمى. و(يلمّ) بدلاً من (يلفّ). ولم أعثر له على قائل. انظر البيت في: أمالي المرتضى ٢ / ١٤٥، قال: وأنشد الفرّاء، وأنوار التنزيل ٢ / ٦١٤.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٤٦.

(٤) مباحث في علم المعاني ١٢٠ .

وأقول: كأنّ جمال هذا التركيب، أعني: حسن الابتداء بالنكرة مع (إنّ)، ناشئ من أنّ معنى (إنّ)، معنى (أل) التعريف الّتي تدخل على النكرة بطبيعتها ؛ لاحظ أنّنا لو أبدلنا (أل) مكان (إنّ) في قول الشاعر: إنّ شواءً ونَشوةً، فقلنا: الشواءُ والنشوة... لكان المعنى مستقيماً.

ولو أبدلنا (أل) مكان (إنّ) في قول الشاعر: إنّ دهراً يلفّ...، فقلنا: الدهر الّذي يلفّ... لكان المعنى مستقيماً أيضاً.

٤ – إغناؤها عن الخبر في بعض الكلام:

يقول الجرجانيّ: ومن تأثير إنّ في الجملة أنّها تُغني إذا كانت فيها عن الخبر في بعض الكلام. ووضَعَ صاحب الكتاب في ذلك باباً، فقال: (هذا باب ما يحسن عليه السكوت في الأحرف الخمسة) ؛ لإضمارك ما يكون مستقَرّاً لها وموضعاً لو أظهرتَه.

وليس هذا المضمر بنفس المظهر، وذلك: (إنّ مالاً وإنّ ولداً وإنّ عدداً)، أي: إنّ لهم مالاً، فالّذي أضمرت هو (لهم).

ويقول الرجل للرجل: هل لكم أحد، إنّ الناس ألْب عليكم ؟ فيقول: إنّ زيداً وإنّ عمراً، أي: لنا، وقال:

إنّ محـــــــــلاً وإنّ مـــــــــرتحلاً وإنّ في الـــــنفس إن مـــــضوا مَهَـــــلا([1])

ويقول: إنّ غيرَها إبلاً وشاءً، كأنّه قال: إنّ لنا أو عندنا غيرَها، قال ([2]): وانتصب الإبل والشاء كانتصاب الفارس إذا قلت: ما في الناس مثله فارساً ([3]).

ولو قيل: دلالتها على الخبر، بدلاً من: إغناؤها عن الخبر ؛ لكان أكثر صواباً. وهذا ما أشار إليه سيبويه قبل قليل بقوله: وليس هذا المضمر بنفس المظهر، وذلك: (إنّ مالاً وإنّ ولداً وإنّ عدداً)، أي: إنّ لهم مالاً، فالّذي أضمرت هو (لهم).

٥ – كثرة مجيئها في الجواب عن سؤال:

يقول الجرجانيّ: ثمّ إنّا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بيّناً في الكثير من مواقعها أنّه يُقصد بها إلى الجواب،

([1]) البيت للأعشى. ورواية الديوانوالكتاب: وإنّ في السفْر ما مضى مَهَلا.
انظر البيت في: ديوان الأعشى ١٧٠، والكتاب ٢ / ١٤١، والخصائص ٢ / ٣٧٣، وشرح المفصّل ١ / ١٠٣، و٨ / ٨٤، وخزانة الأدب ١٠ / ٤٥٢.

([2]) أي: سيبويه ؛ فالكلام ما زال له.

([3]) الكتاب ٢ / ١٤١، ودلائل الإعجاز ٢٤٧.

كقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذِكراً ۞إنّا مكّنّا له في الأرض...﴾[١]، وكقوله عزّ وجلّ في بداية السورة: ﴿نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتيةٌ آمنوا بربّهم... [٢]﴾... وأشباه ذلك ممّا يُعلم به أنّه كلام أُمِر النبيّ (ص) بأن يُجيب به الكفّار في بعض ما جادلوا وناظروا فيه [٣].

وقال في موضع آخر: وإذا كان كذلك وجب إذا قيل: إنّها جواب سائل، أن يُشترط فيه أن يكون للسائل ظنّ في المسؤول عنه، على خلاف ما أنت تجيبه به، فأمّا أن يُجعل مجرّد الجواب أصلاً فيه ؛ فلا ؛ لأنّه يؤدّي أن لا يستقيم لنا إذا قال الرجل: كيف زيد ؟ أن تقول: صالح. وإذا قال: أين هو؟ أن تقول: في الدار. وأن لا يصحّ حتّى تقول: إنّه صالح، وإنّه في الدار. وذلك ما لا يقوله أحد [٤].

وأقول: لو كان كلام الجرجانيّ: (وجب إذا قيل: إنّها جواب سائل، أن يُشترط فيه أن يكون للسائل ظنّ في المسؤول عنه، على خلاف ما أنت تجيبه به) مستقيماً ؛ لكان يجب أن ينطبق على الآيتين اللتين ذكرهما، ولكنّ واقع الحال لا يُشير إلى هذا.

فقول ربّ العزّة: ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾ لا يُشعر أن يكون الظنّ على خلاف الإجابة في قوله: ﴿ إنّا مكّنّا له في الأرض...﴾ ؛ لأنّني لا أعرف الإجابة في الأصل ؛ حتّى أظنّ خلاف ذلك. فالذهن فارغ ينتظر الإجابة، وهو سيتقبّلها ويصدّقها كيفما كانت.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتية آمنوا بربّهم... ﴾، فعندمانقرأ قوله: ﴿نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ﴾، ننتظر الإجابة بأذهان فارغة تتقبّل المقول من دون اعتراض أو ظنّ بخلاف ما سيقال ؛ لأنّها في الأصل لا تعرف الإجابة.

ثمّ إنّه في الآيتين، ليس هناك من مسوّغ لهذا الظنّ بخلاف الإجابة ؛ لأنّ قوله عزّ وجلّ لا يدعو المستمع إلى مثل هذا، فكلّ ما في الأمر أنّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا في الآية الأولى أنّه سيتلو علينا من ذكر ذي القرنين، وفي الآية الثانية أنّه سيقصّ على نبيّه عليه الصلاة والسلام نبأ أهل الكهف. فما الداعي إلى مثل هذا الظنّ في غير ما سيقال ؟!

---

[١] سورة الكهف، الآية ٨٣، ومن الآية ٨٤.
[٢] سورة الكهف، من الآية ١٣.
[٣] دلائل الإعجاز ٢٤٩.
[٤] دلائل الإعجاز ٢٥١.

٦ – مجيئها في الخبر الّذي يبعد مثله في الظنّ:

يقول الجرجانيّ: وإذا كان قد ثبت ذلك، فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظنّ في خلافه البتّة، ولا يكون قد عقد في نفسه أنّ الّذي تزعم أنّه كائن غير كائن، وأنّ الّذي تزعم أنّه لم يكن كائن، فأنت لا تحتاج هناك إلى (إنّ). وإنّما تحتاج إليها إذا كان له ظنّ في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما تثبت، أو إثبات ما تنفي، ولذلك تراها تزداد حسناً إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظنّ، وبشيء قد جرت عادة الناس بخلافه، كقول أبي نواس:

عليك باليأس من الناس إنّ غنى نفسك في الياس (١)

فقد ترى حسن موقعها، وكيف قبول النفس لها، وليس ذلك إلاّ لأنّ الغالب على الناس أنّهم لا يحملون أنفسهم على اليأس، ولا يدَعون الرجاء والطمع، ولا يعترف كلّ أحد، ولا يسلّم أنّ الغنى في اليأس، فلمّا كان كذلك كان الموضع موضع فقرٍ إلى التأكيد، فلذلك كان من حسنها ما ترى (٢).

وأقول: إنّ معنى (إنّ) في هذا الموضع للتعليل، بالإضافة إلى معنى التوكيد ؛ فموضع التعليل ظاهر من خلال تعليله فكرة تبدو غريبة غير متوقّعة ؛ فهي بحاجة إلى تسويغ ؛ ليتقبّلها القارئ، فذكرَ له أنّ غنى النفس كائن في اليأس.

ومعنى التوكيد واضح أيضاً من خلال أنّ العبارة غير المتوقّعة، تحتاج إلى ما يجعل إقناع الآخر بها بحاجة إلى بيان، فجاءت (إنّ) لتعمل توازناً ؛ من خلال أنّ التأكيد يخفّف من الاستغراب، أو يجعله معدوماً.

٧ – مجيئها في التهكّم:

يقول الجرجانيّ: ومن لطيف مواقعها أن يُدّعى على المخاطب ظنّ لم يظنّه، ولكن يُراد التهكّم به، وأن يقال: إنّ حالك والّذي صنعت، يقتضي أن تكون قد ظننت ذلك، ومثال ذلك قول الأوّل (٣):

جاء شقيقٌ عارضاً رمحه إنّ بني عمّك فيهم رماح (٤)

يقول: إنّ مجيئه هكذا مدلاًّ بنفسه وبشجاعته قد وضع رمحه عرضاً ؛ دليل على إعجاب شديد، وعلى اعتقاد منه أنّه لا يقوم له أحد، حتّى كأنّ ليس مع أحد منّا رمح يدفعه به، وكأنّا كلّنا عُزْل (٥).

---

(١) ديوان أبي نواس ٦٠١. ورواية الشطر الثاني فيه: إنّ الغنى ويحكَ في الياس.
(٢) دلائل الإعجاز ٢٥٠.
(٣) حجْل بن نضلة.
(٤) البيان والتبيين ٣ / ٣٤٠. والإيضاح في علوم البلاغة ٣٢.
(٥) دلائل الإعجاز ٢٥١.

ويردّ هذا ما ذكره السكّاكيّ والقزويني من أنّها هنا لتنزيل غير المنكر تنزيل المنكر ؛ لظهور شيء من أمارات الإنكار عليه (١).

ويردّه أيضاً أنّ معنى التهكّم ليس متأتّياً من استعمال (إنّ)، وإنّما متأتّ من عبارة (بني عمّك فيهم رماح).

ولو ذُكرت العبارة من دون إنّ، لَما غيّر من معنى التهكّم شيئاً، ولكن لا يخفى ما لـ (إنّ) من إظهار الفكرة المرادة على نحو أقوى، وما لها من جمال بلاغيّ.

٨ – مجيئها لردّ الظنّ وبيان الخطأ:

قال الجرجانيّ: واعلم أنّها قد تدخل للدلالة على أنّ الظنّ قد كان منك أيّها المتكلّم في الّذي كان أنّه لا يكون، وذلك قولك للشيء هو بمرأى من المخاطب ومسمع: إنّه كان من الأمر ما ترى، وكان منّي إلى فلان إحسان ومعروف، ثمّ إنّه جعل جزائي ما رأيت ؛ فتجعلك كأنّك تردّ على نفسك ظنّك الّذي ظننت، وتبيّن الخطأ الّذي توهّمت، وعلى ذلك – والله أعلم – قوله تعالى حكاية عن أمّ مريم رضي الله عنها: ﴿... قالت ربّ إنّي وضعتُها أنثى والله أعلم بما وضعتْ...﴾(٢)، وكذلك قوله عزّ وجلّ حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قال ربّ إنّ قومي كذّبون﴾(٣).

ولكنّي لا أرى ما رآه الجرجانيّ ؛ من أنّ (إنّ) هي الّتي أعطت معنى (ردّ الظنّ وبيان الخطأ)، فإذا كان الجرجانيّ قد فهم ذلك ؛ فهو من الألفاظ الأخرى في الآية، وليس من (إنّ) ؛ لدليلين هما:

الأوّل: لو كانت الآية على هذا النحو: (... قالت ربّ وضعتُها أنثى...)، أي: من دون (إنّي) ؛ لم يغيّر ذلك في المعنى الّذي فهمه الجرجاني، وليس وجود (إنّ) هو الّذي أعطى الآية هذا الفهم.

ومن باب الاستئناس ؛ فقد رجعت إلى القرآن الكريم إلى ما يشبه هذا الموضع، أي: الإخبار بعد النداء بـ (ربِّ) أو (ربَّنا) ؛ فتبيّن لي أنّ العبارات المشتملة على (إنّ) تزيد على ضعف العبارات غير المشتملة عليها.

ثمّ إنّني قمت بإحصاء العبارات المتشابهة في المعنى بوجود (إنّ)، وبعدم وجودها ؛ فكنت قد حصلت على ما يلي:

---

(١) مفتاح العلوم ٢٦٢، ٢٦٣، والإيضاح في علوم البلاغة ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ٣٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١١٧. دلائل الإعجاز ٢٥٢، ومباحث في علم المعاني ١٢٣.

الآيات المشتملة على (إنّ)	ما يقابلها من الآيات غير المشتملة على (إنّ)
﴿... ربَّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا....﴾[١]	﴿ ربَّنا آمنّا بما أنزلتَ...﴾ [٢]
	﴿... ربَّنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [٣]
﴿... ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي... ﴾ [٤]	﴿... ربَّنا ظلمْنا أنفسنا...﴾ [٦]
﴿... ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي... ﴾ [٥]	

من خلال هذه الآيات الكريمة ؛ نجد أنّ الإخبار بالإيمان بعد النداء ؛ جاء مرّة بـ (إنّ)، ومرّتين من دون (إنّ)، ولم يغيّر ذلك في الأمر شيئاً من ناحية المعنى، سوى أنّ العبارة الّتي اشتملت على (إنّ) ؛ دلّت على التوكيد، فمعنى أنّهم آمنوا ؛ لا علاقة لـ (إنّ) بذلك، وإنّما جاء معنى الإيمان من خلال كلمة (آمنّا).

كما نجد أنّ الإخبار بالظلم بعد النداء ؛ جاء مرّتين بـ (إنّ)، ومرّة من دون (إنّ)، ومعنى الظلم وقع من خلال (ظلمتُ) و (ظلمْنا)، وليس من خلال (إنّ) الّتي أكّدت العبارة.

الثاني: ما ذكره الجرجاني نفسه من عبارات تمثيليّة ؛ للتدليل على (ردّ الظنّ وبيان الخطأ) بقوله: (وذلك قولك للشيء هو بمرأى من المخاطب ومسمع: إنّه كان من الأمر ما ترى، وكان منّي إلى فلان إحسان ومعروف، ثمّ إنّه جعل جزائي ما رأيت ؛ فتجعلك كأنّك تردّ على نفسك ظنّك الّذي ظننت، وتبيّن الخطأ الّذي توهّمت).

فهذه العبارات هي الّتي أعطت ذلك المعنى، وليس وجود (إنّ) في قوله: (إنّه كان من الأمر ما ترى...) ؛ فوجود (إنّ) لم يُفد هنا إلاّ تأكيد العبارة.

وأمّا (إنّ) في قوله عزّ وجلّ: ﴿ قال ربّ إنّ قومي كذّبون ﴾، حكاية عن نوح عليه السلام، كأنّها لإظهار الاستغراب، فمن المستغرَب عدم استجابة قوم نوح عليه السلام له ؛ على الرغم من كلّ ما أبداه وأظهره لهم في سبيل إطاعة الله سبحانه وتعالى، فهو لم يتوقّع عدم الاستجابة ؛ استناداً للبراهين والأدلّة الساطعة الّتي قدّمها لهم، فكأنّها ذُكرت تأكيداً لِما حدث من جهة، واستغراباً له من جهة أخرى.

---

[١] سورة آل عمران، من الآية ١٦.
[٢] سورة آل عمران، من الآية ٥٣.
[٣] سورة المائدة، من الآية ٨٣.
[٤] سورة النمل، من الآية ٤٤.
[٥] سورة القصص، من الآية ١٦.
[٦] سورة الأعراف، من الآية ٢٣.

٩ – الترغيب:

ذكره د. الحمصيّ، وأعطى مثالاً له قوله تعالى: ﴿ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتابَ عليكم إنّه هو التوّاب الرحيم ﴾(١).

ولكنّي لا أرى أنّ (إنّ) هنا أدّت معنى الترغيب، وإنّما حصل هذا بفضل كلمتي (التوّاب) و (الرحيم).

وأرى أنّها جاءت هنا لتؤدّي وظيفة الربط، أي: ربط ما سبقها مع ما تبعها، إضافة إلى معناها الأصليّ وهو التوكيد.

فلو أُزيلت (إنّ) من السياق، وقيل: هو التوّاب الرحيم؛ لم يغيّر في معنىالترغيب، إلاّ أنّه لا يخفى جمالها البلاغيّ في وقوعها هنا، بوصفها رابطة بين ما سبقها وما تلاها، إضافة إلى معنى التوكيد المعروف.

١٠ – توطين النفس على أمر غير متوقّع:

ذكر د. الحمصيّ مثالين من القرآن الكريم؛ للتدليل على هذا الغرض، وهما قوله تعالى: ﴿...قالت ربّ إنّي وضعتُها أنثى...﴾ (٢)، وكذلك قوله عزّ وجلّ حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قال ربّ إنّ قومي كذّبون ﴾(٣).

وهاتان الآيتان هما اللتان ذكرهما الجرجانيّ تحت عنوان: مجيئها لردّ الظنّ وبيان الخطأ، الّذي سبق. وما ذكرناه هناك يُغني عن إعادته هنا.

١١ – تنزيل غير المنكِر منزلة المنكِر:

نحو قوله تعالى: ﴿ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون ﴾(٤). قال القزويني: لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الموت؛ لتماديهم في الغفلة، والإعراض عن العمل لما بعده (٥).

وقد قال د. الحمصيّ في تنزيل المنكر منزلة غير المنكر: وذلك إذا كان بين يدي المخاطب المنكر وتحت بصره شواهد وأدلّة لو تدبّرها؛ لعدل عن إنكاره، فتقوم تلك الشواهد وهاتيك الأدلّة مقام التوكيد اللفظيّ وتُغني عنه. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد... ﴾(٦)، فالسياق القرآنيّ يدلّ على أنّ الخبر في الآية يُلقى إلى المشركين الّذين لا يقرّون بوحدانيّة الله، ومع ذلك جاء الخبر بريئاً من التوكيد اللفظيّ؛ لأنّ بين أيدي أولئك المشركين من

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٥٤. مباحث في علم المعاني ١٢٣.
(٢) سورة آل عمران، من الآية ٣٦.
(٣) سورة الشعراء، الآية ١١٧. مباحث في علم المعاني ١٢٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية ١٥. مباحث في علم المعاني ١٢٣.
(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ٣٢، ٣٣.
(٦) سورة البقرة، من الآية ١٦٣.

الشواهد الساطعة والأدلّة الناصعة ما لو تدبّروه ؛ لعدلوا عن إنكارهم، فلو كان هناك آلهة متعدّدة لفسدت الأرض[١].

وأقول: لدى رجوعي إلى القرآن الكريم وجدت ثلاث آيات مشابهة لقوله تعالى: ﴿ وإلهكم إله واحد...﴾ المذكورة سابقاً، وهي خالية من التوكيد، وهذه الآيات هي: قوله تعالى: ﴿إلهكم إله واحد... ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿... فإلهكم إله واحد... ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿... وإلهنا وإلهكم إله واحد... ﴾[٤].

كما وجدت ثلاث آيات أُخر في هذا المعنى أيضاً، ولكنّها مؤكَّدة، وهي: قوله تعالى: ﴿... انتهوا خيراً لكم إنّما الله إله واحد... ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿... قل إنّما هو إله واحد... ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿... إنّما هو إله واحد...﴾[٧].

فلو كان صحيحاً ما ذُكر من أنّ عدم وجود (إنّ) في مثل الآيات السابقة غير المؤكَّدة ؛ لتنزيل المنكر منزلة غير المنكر، فلماذا وردت هذه الآيات المتشابهة في القرآن الكريم هكذا ؛ أي: مؤكَّدة أحياناً، وغير مؤكَّدة أحياناً أخرى ؛ وهي تؤدّي معنىً واحداً ؟!

وربّ اعترض معترض بالقول: ولكنّ الاستدلال غير صحيح ؛ لأنّك مثّلت بـ (إنّما) وليس بـ (إنّ)، وهي موضوع البحث.

وفي الإجابة نقول: إنّ استخدام (ما) مع (إنّ) يفيد توكيداً على توكيد، قال السكّاكيّ: السبب في إفادة إنّما معنى القصر، هو تضمينه معنى (ما و إلاّ)... وترى أئمّة النحو يقولون: إنّما تأتي إثباتاً لما يُذكر بعدها ونفياً لما سواه، ويذكرون لذلك وجهاً لطيفاً يُسند إلى عليّ بن عيسى الربعيّ، وأنّه كان من أكابر أئمّة النحو ببغداد، وهو أنّ كلمة (إنّ) لمّا كانت لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه، ثمّ اتّصلت بها (ما) المؤكّدة لا النافية، على من لا يظنّه من لا وقوف له بعلم النحو، ضاعف تأكيدها، فناسب أن يُضمّن معنى القصر ؛ لأنّ قصر الصفة على الموصوف، وبالعكس، ليس إلاّ تأكيداً للحكم على تأكيد، ألا تراك متى قلت لمخاطب يردّد المجيء الواقع بين زيد وعمرو:

---

[١] مباحث في علم المعاني ٣٠.
[٢] سورة النحل، من الآية ٢٢.
[٣] سورة الحجّ، من الآية ٣٤.
[٤] سورة العنكبوت، من الآية ٤٦.
[٥] سورة النساء، من الآية ١٧١.
[٦] سورة الأنعام، من الآية ١٩.
[٧] سورة النحل، من الآية ٥١.

زيد جاء لا عمرو، وكيف يكون قولك: زيد جاء ؛ إثباتاً للمجيء لزيد صريحاً، وقولك: لا عمرو، إثباتاً ثانياً للمجيء لزيد ضمناً (١).

هذا ما استطعت الوقوف عليه من معاني (إنّ)، كما ذكرها بعض العلماء والباحثين، وهذا ما وفّقني الله إلى عرضه على هذا النحو، راجياً أن أكون قد وُفّقت في إضافة لبنة إلى بناء هذا الصرح العلميّ العظيم الّذي بناه مَنْ سَبَقنا.

(١) مفتاح العلوم ٤٠٢، ٤٠٣.

مكتبة البحث

١) القرآن الكريم.

٢) أمالي المرتضى = غرر الفوائد ودرر القلائد.

٣) أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، المعروف بتفسير البيضاويّ، عبد الله بن عمر البيضاويّ، بيروت، دار صادر، ٢٠٠١ م، ط ١.

٤) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق محمّد عبد القادر الفاضلي، بيروت، وصيدا، المكتبة العصريّة، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م، ط١.

٥) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل.

٦) التفسير الكبير، الفخر الرازي، طهران، دار الكتب العلميّة، ط ٢.

٧) حاشية الشهاب على تفسير البيضاويّ = عناية القاضي وكفاية الراضي.

٨) خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، عبد القادر البغداديّ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، والرياض، دار الرفاعي، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٢ م.

٩) الخصائص، ابن جنّي، تحقيق محمّد علي النجّار، بيروت، دار الهدى.

١٠) دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجانيّ، علّق حواشيه محمّد رشيد رضا، حمص، منشورات جامعة البعث، مطابع الروضة النموذجيّة، ١٩٨٨ – ١٩٨٩ م.

١١) ديوان أبي نواس، تحقيق أحمد الغزالي، بيروت، دار الكتاب العربي.

١٢) ديوان الأعشى، بيروت، دار صادر.

١٣) ديوان بشّار بن برد، جمعه وشرحه محمّد الطاهر ابن عاشور، تونس، الشركة التونسيّة للتوزيع، والجزائر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، ١٩٧٦ م.

١٤) شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمّد المرزوقي، تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ هـ، ط ٢.

١٥) شرح ديوان الحماسة، الخطيب التبريزي، بيروت، عالم الكتب.

١٦)شرح المفصّل، ابن يعيش النحويّ، بيروت، عالم الكتب، والقاهرة، مكتبة المتنبّي.

١٧)عناية القاضي وكفاية الراضي، الشهاب الخفاجيّ، بيروت، دار صادر.

١٨)غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف المرتضى، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧ م، ط ٢.

١٩)الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط١.

٢٠)مباحث في علم المعاني، د. طاهر الحمصيّ، حمص، منشورات جامعة البعث، مطابع الروضة النموذجيّة، ١٩٩١ – ١٩٩٢ م.

٢١)معجم القراءات، عبد اللّطيف الخطيب، دمشق، دار سعد الدّين، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٢٢)مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكّاكيّ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م، ط١.

❑❑